العلوم البحتة بالأندلس على عهد بني الأحمر بغرناطة

د.بوحسون عبد القادر
جامعة سعيدة

كان اهتمام الأندلسيين بالعلوم كبيرا حيث صنفوا مصنفات كثيرة في مختلف العلوم والفنون ، و كان لها شأن عظيم في العالم الإسلامي وغير الإسلامي ، إذ الكثير منها ترجم إلى لغات عديدة، كما برز علماء أجلاء كانت لهم شهرة كبيرة بين أقرانهم.

وهذا الاهتمام لم يكن وليد القرن السابع الهجري بل كان قبل ذلك بكثير وتواصل في عهد بني الأحمر بسبب تأصل سمة حب العلوم في نفوس الأندلسيين[1] بالرغم من الأوضاع السياسية المتدهورة، ولكون العلوم كذلك كما قال عبد الرحمان بن خلدون من جملة الصنائع وتكثر حيث يكثر العمران والحضارة[2]، مثلما هو عليه الشأن في الأندلس، وقبل الحديث عن واقع العلوم البحتة بالأندلس خلال عهد بني الأحمر لابد من التعريف بهذه الدولة.

إن دولة بني الأحمر أو بني نصر هي دولة أسسها محمد بن يوسف بن نصر الذي يعرف بالشيخ وبابن الأحمر سنة 635ه/1238م، والذي اتخذ من غرناطة عاصمة لدولته الناشئة، والتي انحصرت جنوبا في اسبانيا، وضمت ثلاث ولايات كبرى وهي: غرناطة، ألمرية، مالقة.

وقد كانت هذه الدولة آخر معاقل المسلمين بالأندلس بعد سقوط جل المدن بأيدي الإسبان، حيث أصبحت غرناطة والمدن والقرى المجاورة لها مقصدا للمسلمين النازحين، وتمكنت رغم الظروف الصعبة من الصمود ولو لفترة في وجه الإسبان إلى أن سقطت سنة 897ه/1492.

وعلى الرغم من تدهور الأوضاع السياسية بهذه الدولة إلا أن الحركة العلمية والثقافية بصفة عامة عرفت ازدهارا كبيرا، حيث أقبل شعبها على مختلف العلوم والفنون .

وإن الدارس للتاريخ الثقافي والعلمي لدولة بني الأحمر يجد مشاركة لعلمائها في شتى المجالات العلمية والفنية، وإن تفاوت هذا الاهتمام من علم لآخر، فبالإضافة إلى العلوم الدينية والأدب والعلوم الاجتماعية كانت لهم مشاركة في العلوم البحتة.

ويُقصد بالعلوم البحتة الفلسفة والطب والرياضيات والكيمياء والفيزياء وغيرها من العلوم المجردة، والتي عرفت نوعا من الازدهار في العالم الإسلامي بعد انفتاح المسلمين على ثقافة وحضارة الشعوب المجاورة كالإغريق والهند وبلاد فارس بسبب الترجمة، ليشرع فيما بعد علماء المشرق والمغرب الإسلاميين حركة البحث والاجتهاد فيها[3].

وفي الأندلس استطاع علماؤها الوصول ببعض العلوم البحتة إلى مستويات راقية بينما عرفت علوم أخرى نوعا من الركود، وذلك بسبب تعارضها مع الدين الإسلامي بحسب بعض الفقهاء.

1.الطب والصيدلة:

الطب علم من علوم الطبيعيات[4] عرّفه عبد الرحمان بن خلدون على أنه صناعة تنظر في بدن الإنسان فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية بعد تبين المرض[5]، كما عُرّف أيضا على أنه معرفة أحوال مزاج الإنسان[6].

ونظرا لأهمية هذا العلم وحاجة الإنسان إليه فقد لقي اهتماما كبيرا من قبل جميع الشعوب في القديم والحديث، كما لقيت تشجيعا من قبل السلاطين والحكام في الأندلس زمن بني الأحمر[7]، فاشتهر الكثير من علماء بني الأحمر في هذا العلم الذي عرف تقدما كبيرا لاسيما في مجال الجراحة[8]،أبرزهم الطبيب أبو سعيد بن عتبة(ت 638ه/1240م)[9]، والطبيب العالم

ضياء الدين عبد الله بن احمد المالقي المعروف بابن البيطار(ت 646ه/1247م) صاحب كتاب المغني في الأدوية المفردة وكتاب الأدوية والأغذية وصاحب الرحلة المعروفة لمعاينة الأعشاب ودراستها ومعرفة مجال استعمالها[10].

وبرز كذلك شيخ الأطباء بغرناطة أحمد بن محمد الكزى(كان حيا سنة 690ه/1293م) الذي اشتغل بتدريس الطب بغرناطة[11]، ولا ننسى كذلك العلامة لسان الدين بن الخطيب الذي صنف هو الآخر مصنفات في هذا العلم أبرزها: اليوسفي في صناعة الطب، عمل من طب لمن حب، الكلام عن الطاعون...[12]، كما برز أيضا تلميذه الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا في الطب[13]، وهو من الكتب المشهورة بالمغرب الإسلامي وشرحه هذا يُعد من أهم الشروح له[14].

ومن النساء اشتهرت الطبيبة والصيدلية أم الحسن ابنة الطبيب أبي جعفر الطنجال(ت 750ه/1349م).

وأما عن طريقة التطبيب المستعملة فقد كان الأطباء يصفون لمرضاهم أدوية مناسبة بعد تشخيص المرض، وإذا لزم الأمر الجراحة قاموا بذلك، كما كان الأطباء ينهون المرضى عن تناول بعض المأكولات، وقد صنف في هذا المجال لسان الدين بن الخطيب مصنفا بعنوان: الأصول لحفظ الصحة والأصول ، والذي ركز فيه على دور الغذاء في حفظ الجسم من الأمراض[15]، ويذكر الشاعر أبو الحجاج يوسف بن الشيخ البلوي المالقي انه حين زار طبيبه نهاه عن تناول التين، وفي ذلك قال أبيات من الشعر:

مالقة حُييتَ يا تينها الفلك من أجلك ياتينك

نهى طبيبي عنه في علتي ما لطبيبي عن حياتي نهى[16]

وعموما عرف الطب ازدهارا كبيرا في عصر بني الأحمر، وهذا الازدهار ما هو إلا استمرار لما عرفته الأندلس من تفوق في هذا المجال منذ قرون، حتى أن الغرب أخذ الكثير منها في هذا المجال العلمي الحيوي.

2.الرياضيات:

تحتوي الرياضيات على العلوم العددية والهندسة ، فالعلوم العددية معرفة خواص الأعداد وحسابها، ومن فروعها الجبر والمقابلة والمعاملات والفرائض[17]، أما علوم الهندسة فهو النظر في المقادير المتصلة كالخط والسطح والجسم أو المنفصلة كالأعداد، وبراهينها بينة جلية لا يكاد الغلط يدخلها، ومن فروعها الأشكال والمساحة...[18].

ولقد عرف هذا العلم اهتماما في الأندلس والمغرب الإسلامي لكون الدولة كانت في حاجة إليه من خلال ضبط أحكامها ومواردها ومصاريفها واستخلاص ضرائبها، وهذا كله يحتاج إلى دراية بعلم الحساب، بالإضافة إلى حاجة الناس إلى ضبط مواقيت الصلاة والصيام وضوابط الميراث[19]، كل ذلك جعل هذا العلم يلقى اهتماما من قبل علماء الأندلس، ولذلك نجد أغلب العلماء كانت لهم مشاركة في هذا العلم، وممن برز في هذا المجال نذكر: ابن الأرقم أبو يحيى محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الواد آشي (ت 657ه) الذي كان مشاركا في علم الحساب والهيئة والهندسة[20]، وكذلك محمد بن الحاج(ت714ه) محمد بن علي بن عبد الله الذي كان عارفا بالهندسة، وعلماء آخرون برزوا في هذا المجال ، ومما زاد من الاهتمام بالرياضيات هو عدم تعارضها مع الدين الإسلامي والفقه بدرجة خاصة، إذ لا نجد فقهاء يتحفظون عليها أو يفتون بعدم جواز الخوض فيها كما كان الشأن مع علوم أخرى.

3.الفلسفة:

تعني الفلسفة علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح، وهي مشتقة من اللفظ اليوناني فيلا سوفيا والذي يعني محبة الحكمة[21]، ورغم إطلاع المسلمين على أراء فلاسفة الإغريق في فترة مبكرة من تاريخ المسلمين إلا أنها (الفلسفة) كانت بالأندلس من أسوأ العلوم حظا وأقل انتشارا من سائر العلوم الأخرى، والأكثر تعرضا لتهجمات الفقهاء[22]، إذ كانت من العلوم غير المرغوب فيها من قبل العامة والخاصة[23]، وفي ذلك يقول المقري: " وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم...فإنه كلما قيل أن فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق"[24]، وفي أغلب الأحيان كان يقتل صاحب هذه التهمة من قبل العامة أو يقتله السلطان تقربا من العامة[25].

وفي الكثير من الأحيان يضطر السلاطين إلى التسامح مع بعض الفلاسفة لإلمامهم بعلوم أخرى كالطب والرياضيات وغيرها وليس حبا في الفلسفة، وقد قال المؤرخ والجغرافي ابن سعيد الغرناطي عن الفلسفة في الأندلس: " الفلسفة علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره وتُخفى تصانيفه"[26].

ولقد تعرض الكثير من فلاسفة الأندلس إلى الاضطهاد والقتل بسببها[27]، وما حدث للعلامة لسان الدين بن الخطيب جراء ذلك إلا خير دليل على مقت هذا العلم، إذ حوكم وقتل وأضرمت في جثته النار لاشتغاله بالفلسفة وبسبب كتابه" روضة التعريف بالحب الشريف" الذي أنكره بعض الفقهاء واتهموه بالزندقة بسببه[28]، وانحرافه عن العقيدة الخالصة حسب زعم بعض الفقهاء[29].

ورغم ذلك فقد اشترك الكثير من الأندلسيين بهذا العلم سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أو علنية أو خفية، كابن سبعين(699ه/1270م) وابن منظور القيسي(ت 750ه/1349م) ولسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمان بن خلدون وغيرهم[30].

ورغم تفتح بني الأحمر على الآراء الفلسفية نوعا ما مقارنة بالفترة السابقة للموحدين إلا أن ذلك بقي محدودا، وذلك لبقاء النظرة المزدرية لهذا العلم من قبل العامة، والناقمة على أصحابه، كما كان للفقهاء دور في تلك النظرة، إذ كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة داخل المجتمع الأندلسي، وآراؤهم مسموعة ولها صدى، حتى أن الكثير من السلاطين كانوا في بعض الأحيان يوافقون عليها مكرهين وخوفا أو تقربا من العامة، وما حصل للسان الدين بن الخطيب العالم والأديب والوزير المشهور بالمغرب والمشرق إلا دليل على ذلك.

وخلاصة القول، هذه نظرة خاطفة عن واقع العلوم البحتة بالأندلس خلال عهد بني الأحمر، فعلى الرغم من الاهتمام الواضح بالعلوم الدينية إلا أن العلوم البحتة كان لها نصيب وافر، حيث برز العديد من العلماء المشتغلين بها، والذين تركوا بصمتهم واضحة في هذا المجال.

قائمة المصادر والمراجع:

1 المقري، تفح الطيب، ج1، ص 181.
2ابن خلدون، المقدمة، ص 481، حاجي خليفة، كشف الظنون ، ص42.
3محمد أحمد شقرون، مظاهر الثقافة المغربية، ص 211.
4علم الطبيعيات هو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون، فينظر إلى الأجسام(إنسان ، حيوان، نبات وجماد) وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد...، انظر ابن خلدون، المقدمة، ، ص ص 542ــ543.
5 نفسه، ص 545.
6ابن زكري، غاية المرام، ص 337.
7عرف الطب ازدهارا كبيرا بالأندلس قبل عهد بني الأحمر، فاشتهر الكثير من الأطباء لا سيما من أسرة بني زهر كالطبيب أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر الإيادي المعروف في أوربا باسم أفنزوار، ينظر: أبو مروان عبد الملك بن زهر، الطب العربي، ص 25.
8البتنوني، رحلة الاندلس، ص 45، عثمان مهملات، فضل المسلمين على الطب، مجلة العربي، ص ص 92ــ98.
9ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص ص 282ــ285.
10الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج16، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (دت)، ص 487، المقري، نفح الطيب، ، ج4، ص ص 179ــ180.
11ابن الخطيب، الإحاطة، ، ج1، ص 87.
12المقري، نفح الطيب، ، ج8، ص 283.
13ألفية ابن سينا هي أرجوزة في الطب مطلعها: الطب حفظ صحة برء مرض من سبب في بدن منذ عرض
14المقري، نفح الطيب، ج9، ص ص 131.
15ابن الخطيب، مخطوط الأصول لحفظ الصحة والوصول، ورقة رقم 5.
16المقري، نفح الطيب، ج1، ص ص 133ــ134.
17ابن خلدون، المقدمة، ص ص 534ــ536.
18 نفسه، ص 538.
19محمد شقرون، مظاهر الثقافة، ص 217.
20ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 101.
21الخوارزمي محمد بن أحمد، مفاتيح العلوم، ص 79.
22محمد شقرون، مظاهر الثقافة، ص 212.
23ابن خلدون، المقدمة، ص ص 568ــ574.
24المقري، نفح الطيب، ج1، ص 181.
25نفسه، ج1، ص 181.
26المقري، نفح الطيب، ج4، ص27.
27ابن خلكان وفيات الأعيان، ج2، ص 4، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص 27، البتنوني، رحلة الأندلس، ص 46.
28ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، ص ص 12ــ15.
29محمد شقرون، مظاهر الثقافة، ص 214.
30ابن خلدون، المقدمة، ص ص 542ــ543، الطوخي، مظاهر الحضارة، ص 371.